

ركبة المعتزلة :

علم الله في مذهب المعتزلة

للدكتور البير نصري نادر

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

إن الكلام في علم الله يختلف كل الاختلاف عن الكلام في المعرفة عند الإنسان ؛ لأن علمنا يتكون تدريجياً ونحن نصل إلى المعرفة بفضل مجهود فكري مستمر نبذله في فهم الحقائق والوقائع ؛ ونمر هكذا بمراحل أدناها مرحلة الجهل وأسمائها مرحلة المعرفة ؛ ولكن كم تصادفنا من مراحل نشك فيها وتتردد وننعم التفكير ونجلى الأمور ونتخذ القرارات ثم نغيرها أحياناً ونتمسك بها أحياناً . وهذا التدرج في تكوين المعرفة برهان قاطع على عجز العقل البشري وعدم كماله .

وإذا ما تكلمنا عن علم الله فلا يجوز أن نقارنه بعلمنا ولا أن نحاول فهمه بتشبيهه بعلمنا لأنه لا توجد أدنى مشابهة بين المنتهى واللامتناهى ولا بين الكامل والناقص .

لذلك كان الجبائي^(١) لا يسمي الله فيها ولا قتيها ولا موقنا ولا مستبصراً ولا مستبيناً لأن الفهم والفتنة هو استدراك العلم بالشيء بعد أن لم يكن الإنسان به عالماً^(٢) واليقين هو العلم بالشيء بعد الشك ، وكل هذا يدل على التبدل والتغير في مراتب العلم ولكن لا يوجد أي تغير في الله وهو في حالة ثبات كامل لأن علم الله هو هو أعني هو ذاته وذاته أزلية كاملة لا تتغير فيها ولا تبدل .

ولما كان الله لم يزل عالماً بكل الأمور فله منذ الأزل كامل شامل كل شيء . حصل وسيحصل . ولكن هناك مسألة بمحها المعتزلة على النظر وجاء البحث مؤيداً لقولهم بثبات علم الله منذ الأزل ، وهذا المسألة هي :

(١) هو أبو علي بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ وله في جي في الجوزستان ثم جاء البصرة وتلف للنظام المعتزلي شيخ المعتزلة حيثقل في البصرة . ومن تلاميذ الجبائي الأشعري رأس الأشاعرة لاظر التمهيد لابن النعمان ٦ وكتاب التبيين والرد على أهل الأمراء والبدع للعلل المتوفى سنة ٣٢٢ هـ

(٢) الأشعري : مقالات الاسلاميين من ٥٢٦ .

هل يجوز كونه ما علم الله أنه لا يكون ؟

نرد للمعتزلة على هذا السؤال بالنفي طبعاً . ولكن ذلك لا يمنعهم من تحليل السؤال تحليلاً دقيقاً ليبينوا استحالة . فنجد مثلاً على الأسواري^(١) يشطر السؤال شطرين هما أولاً : يجوز كونه شيء . أعني أن الله يقدر على الشيء . أن يفعله ، وثانياً : الله عالم أن هذا الشيء لا يكون وأنه أخبر أنه لا يكون . ويقول الأسواري إذا أورد أحد القوانين عن الآخر كان الكلام صحيحاً ؛ أما إذا افترق القولان كان ذلك مستحيلاً . وذلك على عكس ما هو عند الإنسان ؛ لأنه ليس من المستحيل أن نلاحظ عند الإنسان فرقاً بين معرفته لعمل واجب أداؤه والامتناع عن أداء هذا العمل ؛ لأن الإنسان قادر على الضدين في حين أن الله لا يوجد فيه تغير ، وعلمه وإرادته وقدرته تعالى هي ذاته وذاته لا تتغير^(٢) .

وهناك رد آخر على هذا السؤال . فنقول المعتزلة : إذا علم الله أن حدثاً أو عملاً أو شيئاً لن يحدث لمجز أو استحالة في الحدث أو البطل أو الشيء نفسه (مثل زرع البصرة أو لإرسال المؤمنين إلى النار) أو لمجز من قبل الله على حدوث هذا العمل أو الشيء . إذ أن حدوثه يتناقض النظام والقوانين المستقرة للعالم منه تعالى ، فإن هذا الحدث أو العمل أو الشيء لم يحدث أبداً ما دام وجد المجز أو الاستحالة^(٣) .

في هذا الرد نجد اعتقادين راسخين عند المعتزلة وهما أن العالم خاضع لنظام كامل تام مطابق لعلم الله ؛ وبما أن علم الله لم يزل ثابتاً فنظام العالم ثابت أيضاً لأنه لو تصادف وأصبح هذا النظام غير مطابق لطه تعالى فله لم يبد كاملاً . وبما أن علمه هو ذاته فتصبح الحيات والحالة منه غير كاملة أيضاً وهذا تناقض .

وتريد أكثر المعتزلة على ذلك قائلين : ما علم الله أنه لا يكون لاستحالاته أو لمجز منه يجوز أن يكون على شطرين : أن يرفع المجز عنه وإن تحدث القوة عليه . ولكن في هذه الحالة كان الله لم يزل يعلم برفع المجز من هذا الشيء . ويحدث القوة عليه .

(١) من أسهل فارس تليد لأبي المنذر الملاف والنظام . توفى حوالي سنة ٢٠٠ هـ

(٢) الفهرستاني : اللل على حاشي ابن حزم ج ١ ص ٦٦ . الأشعري : مقالات الاسلاميين من ٥٥٩ و ٥٦٠ .

(٣) الأشعري : مقالات الاسلاميين من ٥٦٢ .

وهنا لا يناقض كماله تعالى .

فتلاحظ أنه مهما اختلف وضع المسألة فالحل واحد وهو أن المنة تردد دائماً أن الله لم يزل عالماً بالأشياء كلها ولا يجوز حدوث شيء إلا وهو لم يزل يعلمه .

لما كان الله لم يزل يعلم كل شيء فكيف يمكن أن تتكلم من حرية الاختيار عند الإنسان لأعماله ؟ أهو حر فعلاً أم مجبر ؟ إنها المسألة في غاية الدقة والأهمية وهالك رأى المنة فيها .

علم الله ومهيبة الإنسان في الآخرة :

يحدثنا ابن حزم عن رأى هشام القوطي المنزلي تشاركه فيه جميع المنة لأنه يجبر عن أصل من أصولها في علم الله . يقول هشام : إن من هو الآن مؤمن عابد ولكن في علم الله أنه يموت كافراً فإنه الآن عند الله كافر . وإن من كان الآن كافراً مجوسياً أو نصرانياً أو دهرانياً أو زنديقاً ولكن في علم الله أنه يموت مؤمناً فإنه الآن عند الله مؤمن^(١) . فلا غرابة في هذا القول إذ أن علم الله لا يتغير ؛ فإذا علم الله منذ الأزل أن فلاناً سيموت كافراً ولو آمن وتكلم من الزمن فإنه عند الله كافر ؛ لأنه تعالى لم يزل يعلم أن بعد إيمان هذا الشخص كفرة . ولا يجوز أن يزيد كفر للمؤمن شيئاً في علم الله — هل يعني ذلك أن لا قدرة للإنسان على أعماله لأن الله لم يزل يعلمها ؟ نحن نعرف أن المنة « أهل عدل » أيضاً أعمى أنهم يقولون إن الإنسان قادر على أعماله بحاسب عليها — فكيف يكون التوفيق بين القولين إن الله لم يزل يعلم كل شيء ، وإن الإنسان قادر على أعماله ؟

هناك حل دقيق أتى به الجبائي ليوفق بين هذين القولين . فيقول : لنفحص الحالات الثلاث الآتية :

أولاً : يقول الجبائي إذا وصل مقدور بمقدور كانت النتيجة إيجابية صحيحة ؛ مثلاً لو قلنا إذا آمن الكافر (شرط أول) وكان الإيمان خيراً له (شرط ثان) لأدخله الله الجنة (النتيجة الصحيحة لهذين للشرطين) والقصوران هما : العودة إلى الإيمان بعد الكفر — الإنسان في إسكانه أن يعود إلى الإيمان — وإذا لم تخبر الله

(١) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ١ ص ٦٤٩ .

عما يناقض ذلك فتكون هذه الحالة الأولى صحيحة .

عند تحليل هذه الحالة نجد المنة تصرف بمقدرة الإنسان على الكفر وعلى الإيمان وذلك بمجرد اختياره ؛ ثم إن الله لم يزل يعلم هذا الاختيار . إننا هنا بدون شك بصدد نقطة صعبة وهي شعورنا بمقدورنا على اختيار شيء أو حال دون الآخر ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى علم الله منذ الأزل بما نختاره .

وإذا تمسكت المنة بالقول بمقدرة الإنسان على أعماله كان عكسها هذا صواباً لعدالة الله وإتقاء المسؤولية على الإنسان وحده عند ما يساقب أو يثاب . ففي هذه الحالة الأولى التي يرضها الجبائي برهان كاف على حرية الاختيار عند الإنسان على شرط أن يأتي اختياره على شيء ممكن جائز مقدور .

الحالة الثانية : إذا كان هناك شيان متناقضان فلا يمكن التكلم عن حرية الاختيار عند الإنسان واستحالت النتيجة — مثل قولنا أن يكون المرء مؤمناً وكافراً أو متحرراً وساكناً أو حياً أو ميتاً في آن واحد . إن الإنسان لا يقدر على ذلك وحرية مقيدة أمام التناقض . فالحرية لا تعني إذن القدرة على عمل أي شيء أو ضده — وبما أن الله لم يزل يعلم مجرى الأمور حسب قوانينها فهو يعلم مجز الإنسان أمام التناقض كما أنه تعالى لم يزل يعلم قوانين الدالم فكل ما يحدث فيه كان هو لم يزل عالماً به .

وفي الحالة الثالثة : يقول الجبائي إذا وصل شيان أحدهما جائز والآخر مستحيل فتكون النتيجة مستحيلة ؛ مثلاً إذا قلنا إن الكافر يؤمن في حين أن الله يعلم ويخبر أنه لن يؤمن فن المستحيل أن يؤمن هذا الكافر فتكون إذن حرية المرء مقيدة بعلم الله وإخباره . ولكنها حالات شاذة تلك التي يخبرنا الله فيها من صله^(٢) .

أثر منطق أرسطو :

إن تحليل الجبائي لمسألة علم الله ومهيبة الإنسان هو تحليل منطقي لا شك أن لنطق أرسطو أثراً كبيراً فيه . فقابله القضايا الإيجابية أولاً والقضايا السالبة ثانياً واستنتاجه النتائج الإيجابية أو السالبة كل ذلك يدل على أن الجبائي كان ملماً^(٣) بهذا المنطق

(١) أنظر الأشرى : مقالات الإسلاميين ص ٦٠ .

(٢) تلخص الجبائي للحكم التي ألم بالفلسفة اليونانية من طريق الترجمة التي قام بها جابر بن أسحق في بيت الحكمة (أنظر ابن الرضى النجاشي والأمل ص ١٠ والتلخيص كتاب الفقيه ص ٣٢) .